الثقافة العلمية

ولسنا نعني بالعلم هنا : معناه عند أهل اللغة ، ولا مدلوله الاصطلاحي القديم عند أهل المنطق أو علماء الكلام وأشباههم ، ولا مفهومه الإسلامي كما جاء به القرآن والسنة . وإنما نعني بكلمة (العلم) مفهومها الاصطلاحي الحديث ، كما شاع عند الغربيين ، ونقله إلينا الناقلون من أهل العربية ، حتى أصبح مصطلحًا شائعًا ، ولا مشاحَّة في الاصطلاح . ومدلول العلم عندهم هو : ما قام على الملاحظة والتجربة ، وخضع للقياس والاختبار ، مثل : علوم الفيزياء والكيمياء والأحياء ـ النبات والحيوان ـ والجيولوجيا والفلك والتشريح والطب وغيرها .

ولا نريد للداعية أن يتعمَّق في دراسة هذه العلوم ، فإن هذا غير مقدور عليه ، والعمر لا يتَّسع ، والطاقة لا تحتمل ، والمعارف لا تنتهي ، ولا تقف عند حدٍّ .

إنما نريد أن يطالع بعض الكتب الميسَّرة منها ، مما يعَدُّ لغير المتخصِّصين ، وكذلك المقالات العلمية في المجلات مما ينشر ليقرأه جمهور المثقَّفين ، والمفروض أنه واحد منهم ، وذلك بعد أن يكون قد درس الأصول المهمَّة من هذه العلوم في المرحلتين الإعدادية والثانوية دراسة تمكِّنه من متابعة الفكر العلمي ـ ولو بقدر ـ فيما بعد .

والثقافة العلمية مهمَّة في عصرنا للمثقَّفين عامة ، وللدعاة خاصة ، وذلك لأسباب :

١- أنها مهمة لفَهم الحياة المعاصرة ، وقد أصبح شريانها ، والمحرِّك لكثير من أمورها . فما من بيت إلا دخلته آثار العلم الحديث ، من كهرباء ، وأجهزة وأدوات . حتى المسجد نفسه نجد فيه ساعة جدارية ، ومكبِّرات للصوت ، وقد نجد فيه أجهزة للتسجيل ، وكلُّها من إنتاج العلم الحديث . ولا يجمل بالداعية أن يعيش في دنيا يسيِّرها العلم ويدير رحاها ، ولا يدرك الأوليات والأساسيات لهذا العلم .

٢- أن بعض ما يعزى إلى العلم ـ وتحويه كتبه ومقرَّراته ـ يتَّخذ وسيلة للتشكيك في الدين ، مثل نظرية (النشوء والارتقاء) في الكائنات الحية ، التي تعرف بنظرية (التطور) لداروين وغيره . فلا بد من معرفة شيء عن مثل هذه النظرية ، وقيمتها من الناحية العلمية ، حتى يمكن للداعية اتخاذ موقف محدَّد منها ، بناء على دراسة صحيحة لا على خيالات أو إشاعات . والحكم للشيء أو عليه فرع عن تصوُّره .

٣- أن من الحقائق العلمية ما يمكن الداعية استخدامه في تأييد الدين ، وتوضيح مفاهيمه ، ونصرة قضاياه ، والذبِّ عنه ، بدفع شبهات خصومه ومفتريات أعدائه . وذلك يبدو في عدَّة صور ، منها :

(أ) تقريب بعض المعتقدات والحقائق الدينية من أفهام أهل العصر وتأييدها بمنطق العلم التجريبي نفسه ، حتى إن أولى قضايا الدين وكبراها ، وهي إثبات وجود الله تعالى ، يستطيع هذا العلم أن يقوم فيها بدور بنَّاء ، في مواجهة الماديين والملاحدة ، فيقيم الأدلَّة ويدحض الشبهات ، بوساطة فروعه العديدة من رياضيات ، وفلك ، وفيزياء ، وكيمياء ، وأحياء ، وطبٍّ ، وغيرها . كما رأينا ذلك في مثل كتاب أكريسي موريسون (الإنسان لا يقوم وحده) المترجم إلى العربية تحت عنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) ، وكتاب (الله يتجلَّى في عصر العلم) لثلاثين عالمًا أمريكيًّا معاصرًا ـ وكتاب (مع الله في السماء) للدكتور أحمد زكي.

ورأينا مفكري المسلمين ينتفعون بذلك في نصرة العقائد ، كما في كتاب (قصة الإيمان بين الدين والعلم والفلسفة) للشيخ نديم الجسر ، وكتاب (الإسلام يتحدى) للمفكر الهندي وحيد الدين خان ، وقد جعل له مراجعه الدكتور عبد الصبور شاهين عنوانًا فرعيًّا هو (مدخل علمي للإيمان) . لقد كان المشتغلون بالفلسفة والكلام قديمًا يستبعدون ـ بل ينفون ـ أن يرى الإنسان عمله في الآخرة بعد أن فرغ منه في الدنيا ، لأن الأعمال أعراض ، والعرض لا يبقى زمانين ،

وعلى هذا يؤولون مثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ (الزلزلة:٦)، وقوله : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ ﴾ (آل عمران:٣٠)، وما شابهها من آيات ، بأن المراد بالأعمال جزاؤها ، أي ليروا جزاء أعمالهم . فجاء العلم الحديث ليثبت أن أقوال الإنسان وأعماله كلَّها موجودة في الفضاء ، وأنها يمكن أن تسجَّل وتصوَّر وتبقى . ولو بعد حدوثها بزمن طويل ، وإن لم يوفَّق الإنسان لاختراع آله تقوم بهذه المهمَّة حتى الآن .

ولكن العلم لا ينفي إمكانها . ومعنى هذا أن كلَّ إنسان يمكن أن يُواجه بقوله وعمله طيلة حياته في صورة (فيلم) تسجيلي ناطق ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وبهذا يرى عمله حقيقة لا مجازًا .

(ب) ويستطيع العلم بمكتشفاته ومقرَّراته ، أن يؤيِّد كثيرا من الأحكام الشرعية ببيان ما اشتملت عليه من جلب المصالح للناس ، ودرء المفاسد عنهم ، وبذلك يزداد الذين آمنوا إيمانًا ، ويضعف جانب المرتابين والمشكِّكين في كمال الشريعة الإسلامية ، وصلاحيتها لكلِّ زمان ومكان .

يستطيع علم الطب أن يعطينا صورة واضحة لما تجنيه (أم الخبائث) الخمر على شاربيها ومدمنيها من أضرار جسيمة على الأفراد ، وعلى الأسر ، وعلى المجتمعات ، ماديًّا ومعنويًّا ، وبهذا تتبيَّن حكمة الإسلام في تحريم الخمر ، ولعن كلِّ من شارك في صنعها أو الاتجار بها أو تقديمها من قريب أو بعيد[1].

ومثل ذلك المخدرات والتدخين ، وكلُّ ما يعتاد الناس تناوله من مأكول أو مشروب أو مشموم أو غيره ، يضرُّ متناوله عاجلاً أو آجلاً ، فضلاً عن الأضرار الأخلاقية والنفسية والاجتماعية الأخرى .

---

(١) عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعن في الخمر عشرة عاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وشاربها وساقيها وآكل ثمنها . رواه الترمذي في البيوع (١٢٩٥)، وقال : حديث غريب ، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨١)، والطبراني في الأوسط (٩٢/٢)، عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٣٥٧) .

وكذلك ما يسببه انتشار الزنى من أمراض تناسلية وغيرها للرجال والنساء ، بالإضافة إلى آثاره السيئة على الأنساب والأخلاق والأسر والمجتمع كلِّه . مما يؤكِّد معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء:٣٢) .

وتستطيع علوم الأحياء ، ووظائف الأعضاء ، والطب وغيرها ، أن تبيِّن لنا حقيقة الفوارق الفطرية بين الذكر والأنثى - وبعبارة أخرى بين الرجل والمرأة - وأن هذا التفاوت لم يكن عبثًا ، وأن تجاهله في التشريع والتربية والتعليم والتوجيه ، لا يُعقِب إلا أسوأ النتائج ، وأن من الخير لكلا الجنسين ، وللجماعة كلِّها ، أن يكون لكلٍّ منهما عمله اللائق به ، وثقافته الملائمة لوظيفته في الحياة . وبهذا يتلاقى منطق العلم مع منطق الدين الذي هو منطق الفطرة السليمة .

وحسبي هنا أن أنقل الكلمات التالية عن رجل يعدُّ من أقطاب العلم التجريبي في عصرنا ، وهو الدكتور (ألكسيس كاريل) في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) يقول : (إن ما بين الرجل والمرأة من فروق ليست ناشئة عن اختلاف الأعضاء الجنسية ، وعن وجود الرحم والحمل ، أو عن اختلاف طريقة التربية . وإنما تنشأ عن سبب جدُّ عميق ، وهو تأثُّر العضوية بكاملها بالمواد الكيماوية ومفرزات الغدد التناسلية . وإن جهل هذه الوقائع الأساسية ، هو الذي جعل روَّاد الحركة النسائية يأخذون بالرأي القائل بأن كلا الجنسين الذكور والإناث يمكن أن يتلقوا ثقافة واحدة ، وأن يمارسوا أعمالاً متماثلة . والحقيقة أن المرأة مختلفة اختلافًا عميقًا عن الرجل ، فكلُّ حجيرة في جسمها تحمل طابع جنسها ، وكذلك الحال بالنسبة إلى أجهزتها العضوية ، ولا سيما الجهاز العصبي . وإن القوانين العضوية - الفيزيولوجية - كقوانين العالم الفلكي لا سبيل إلى خرقها ، ومن المستحيل أن نستبدل بها الرغبات الإنسانية ، ونحن مضطرُّون لقَبولها كما هي . فالنساء يجب أن ينمين استعداداتهن في اتجاه طبيعتهن الخاصة ، دون أن يحاولن تقليد الذكور ، فدورهنَّ في تقدُّم المدنيَّة أعلى من دور الرجال ، فلا ينبغي لهن أن يتخلَّين عنه) .

وقال أيضًا :

(يغفل الناس عادة شأن وظيفة الولادة بالنسبة إلى المرأة ، مع أن هذه الوظيفة ضرورة لكمال نموِّها ، ولذلك كان من الحمق والسخف صرف المرأة عن الأمومة ، فلا ينبغي أن يتلقَّى الفتيات والفتيان ثقافة واحدة ، ولا أن يكون لهم أسلوب واحد في الحياة ، ولا مثل أعلى واحد ، وعلى المربِّين أن يعتبروا الفروق الجسمية والعقلية بين الذكر والأنثى ، وما بين دوريهما الطبيعيين ، فبين الجنسين فروق لا يمكن أن تزول ، ومن الواجب اعتبارها في بناء العالم المتمدِّن)[1] .

(جـ) وثمت مجال آخر يمكننا فيه استخدام حقائق العلم الحديث لتأييد حقائق الدين ، وذلك بتعميق مدلولات بعض النصوص ، وتوسيع نطاق مفهومها ، وزيادة توضيحه بما كشف عنه العلم من مقرَّرات ، وما توصَّل إليه من نتائج .

فإذا قال القرآن عن النحل : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ (النحل:٦٩)، يستطيع عالم الأحياء أو الكيمياء أو الطب أو الأغذية ونحوها، أن يحدثنا بسَعَة عن عسل النحل وألوانه ، وما فيه من شفاء ، وفيم يكون ، وكيف يكون؟

وإذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر:٤٩)، أو : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢) ، أمكن للعلم هنا بشتَّى فروعه أن يفيض في بيان دقَّة التقدير في كلِّ ما خلق الله في الكون ، فحجم الكرة الأرضية ، وبعدها عن الشمس بمسافة محدَّدة ، ودورانها حول نفسها بسرعة معيَّنة ، وبعد القمر عنها بمسافة محدَّدة كذلك،واشتمالها على كمية المياه في بحارها ومحيطاتها بهذا المقدار، ووجود الغازات فيها بنسب ومقادير معلومة ، وغيرها وغيرها . . . كلُّ ذلك يدلُّ على روعة التقدير الإلهي وعظمته وشموله لكلِّ ما في الكون من مخلوقات ، وبهذا يعمِّق العلم في عقولنا وقلوبنا معنى النصِّ القرآني ، فنزداد به هدى ويقينًا .

---

(١) انظر : الإنسان ذلك المجهول لألكسيس كاريل صـ١٠٨ – ١١١ ، تعريب شفيق أسعد فريد ، مكتبة المعارف ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

وإذا قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (الأعلى:٣) ، أو : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه:٥٠) ، يستطيع العلم هنا كذلك أن يبيِّن لنا سَعَة آفاق الهداية الإلهية المبثوثة في الكون ، علويه وسفليه ، إنسانه وحيوانه ، ونباته وجماده ، كلُّ شيء فيه هُدي لغايته ، ويُسِّر لما خُلق له ، ومُنح ما يساعده على ذلك من سنن الله وقوانين الكون . نجد ذلك في أضخم ما في الكون ، إلى أصغر ما فيه ، من المجرَّة إلى الذرَّة .

(د) ومجال رابع يدخل فيه العلم ويصول ويجول ، وهو بيان سبق القرآن بكثير من الحقائق التي كشف عنها العلم الحديث ، وهو ما أشرنا إليه ونحن نتحدَّث عن (الإعجاز العلمي للقرآن) .

وقد عُني كثيرون في عصرنا بهذا الميدان ، إلى حدِّ الإفراط والتجاوز في بعض الأحيان ، وجُلُّ هؤلاء من رجال العلم المتحمِّسين للدين ، كما رفضه آخرون بالكلية ، واستخدمه آخرون بتحفُّظ واعتدال ، وهذا ما أراه . وأعني بالاعتدال ، ألا نتعسَّف في التأويل ، ولا نُخرج الألفاظ والتراكيب عن مدلولاتها اللغوية ، ولا نحمل النصوص على فروض ونظريات لم تصبح حقائق علمية .

وممن استخدموا العلم في هذا الجانب العلاَّمة الشيخ رشيد رحمه الله في تفسير (المنار) ، وفي بعض كتبه كـ(الوحي المحمدي) ، حيث يتحدَّث فيه عن معجزات القرآن الفلكية والطبيعية ونحوها فيقول :(وأما إخبار القرآن عن عالم الغيب المادي ، من تكوين وتاريخ ، فمن معجزاته الإيجابية أنه جاء فيه كثير من التعبيرات التي كشف العلم والتاريخ في القرون الأخيرة من معانيها ما لم يخطر في بال أحد من أهل العصر الذي نزل فيه . ومن معجزاته السلبية أنه لم يثبت على توالي القرون بعد نزوله شيء قطعي ينقض شيئًا من أخباره (القطعية) ، على أن أخباره هذه إنما جاءت لأجل الموعظة والعبرة والتهذيب ، ويكفي في مثل هذا أن تكون الأخبار على المألوف عند الناس ، ولا يُنتقد عليها إذا لم تشرح الحقائق الفنية والوقائع التاريخية ؛ لأنها ليست مما يبعث الرسل لبيانه ، ومنها ما لا يمكن الوقوف عليه إلا بالتعمُّق في العلم ، أو الاستعانة بالآلات التي لم تكن معروفة عند المخاطبين الأولين

بالوحي ، بل لا يصحُّ أن يأتي فيها ما يجزمون بإنكاره بحسب حالتهم العلمية ، لئلا يكون فتنة لهم ، ولقد قال نبي الإنسانية العام : «أنتم أعلم بأمور دنياكم» رواه مسلم في صحيحه[1] .

ومن دقائق تعبير القرآن في النوع الأول ـ التكوين ـ التي اختلف في فهمها الناس . . . أن مادة الخلق (دخان) ، وهو عين ما يسمَّى السديم ، وأن السموات والأرض كانتا رتقا ، أي مادة واحدة متَّصلة ، ففتقهما الله وجعل كلا منهما خلقًا مستقلاً ، وبثَّ فيهما أنواع الدواب ، ولم يكن أحد يعتقد أو يتصوَّر أن في شيء من هذه الأجرام السماوية حيوانًا ، وأنه جعل من الماء كلَّ شيء حي ، وأنه خلق جميع الأحياء النباتية والحيوانية أزواجًا ، فجعل في كلٍّ منهما ذكرًا وأنثى ، وأنه جعل كلَّ نبات موزونا ، يعني أن عناصره متوازنة على نسب مقدَّرة ، وأنه أرسل الرياح لواقح ، وأنه ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ (الزمر:٥) ، والتكوير هو اللف على الجسم المستدير ، وهو صريح في كروية الأرض ودورانها ، اللذين كانا موضوع الجدال والنضال بين العلماء إلى عهد قريب بعد الإسلام .

وأمثال هذا فيه كثير ، حتى إن بعض آياته في الشمس والقمر والنجوم وسبحها في أفلاكها ، وجريانها إلى أجل مسمَّى ، وفي تناثر الكواكب عند خراب العالم ، لا تُفهم فَهما صحيحًا إلا في ضوء علم الفلك الحديث .

وأعجب منه إثباته أن للخلق سننا لا تتبدَّل ، وبيانه لكثير منها ، ومن سنن الاجتماع التي لم يهتدِ البشر إليها بالبحث العلمي إلا بعد بيان القرآن لها بقُرون)[2] اهـ .

إن الداعية الذي يحسن استخدام حقائق العلم في المجالات التي ذكرناها ، يجد طريقه إلى أذهان الناس وعواطفهم سهلاً معبَّدًا ، ويقع كلامه من نفس المثقفين العصريين موقع القَبول وحسن التأثير ، ولعل هذا من أظهر الأسباب وراء نجاح بعض الدعاة المرموقين في عالمنا العربى اليوم .

* * *

---

(١) سبق تخريجه صـ٥٥ .

(٢) الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا صـ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، طبعة مكتبة القاهرة ، الطبعة السادسة ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م .